

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ

أخى :

إن الإنسان قد يتمنى لأخيه الخير ويدعو له بقلبه ولسانه وشعوره وإحساسه . فإذا ما بلغ الأخ أمنيته ، واستجاب الله دعاءه وقف الداعى المتمنى حاسداً حاقداً إذا لم يجد من صاحبه عطفاً وبراً وفضلاً وكرماً . إلا قليلاً من عباد الله المؤمنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون !! لماذا هذا الانقلاب ؟ وعلام هذا التحول يأينها الإنسان الظلوم وقد كنت بالأمس داعياً متمنياً مقبلاً فرحاً .

أخى :

يتبين لنا من هذا أن الإنسان حين يدعو ويتمنى لأخيه الخير إنما يعنى نفسه ، ويقصد مصلحته الشخصية بدعائه وتمنيه ، ولذلك حين يحرم أثرهما يذهب إلى الكفر بهما . رحماك ربي وعفوك ، وهكذا تتجلى حقيقة الإنسان ، وتنكشف طويته عند المناسبات والظروف . أما فى الأحوال العادية فإنه يلبس مسوح العبادة ، ويتدثر بمكارم الأخلاق ، ويظهر بالتقوى والصلاح كأنه النور الذى يشرق للناس .

أخى :

إن الإنسان بمقتضى أنانيته يدعو لنفسه فيطرق الباب متصدراً بغيره مستتراً بسواه وربك لا تخفى عليه خافية . ومن هنا يصح أن نعلم لماذا لا يستجيب الله دعاءنا . فعفوك ورضاك ، وحسن لقاءك .

أخى :

إن حبّ الدنيا أساس كل خطيئة ، ومحور كل بلاء ومصيبة . فوالله لا نجاة ولا خلاص إلا برحمة الله وعفوه . واعلم أن العارفين بالله حين أوقفهم الله على

الحقائق الإنسانية وقفوا بها مع ربهم موقف العائد المستغيث . فلا راحة ولا هدنة ، ولا استقرار ولا هدوء فالحرب سجال . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ فانظر أخى إلى حقد الإنسان على أخيه . وانظر إلى غيره من المعاصي والذنوب ؛ فإن كل هذا يكفى الإنسان طول عمره جهاداً ونضالاً ، وحرباً سجالاً . وانظر إلى ما تنطوى عليه النفس من فجور وضلال وكفر وإضلال فستعلم يقيناً معنى قوله سبحانه ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ .

أخى :

لا تحسبن أنه بمجرد التوبة من المعاصي الظاهرية - كالزنى والسرقة وشرب الخمر وما إلى ذلك من المحرمات - تنتهى وظيفة النفس ومهمتها ، ويذهب عنها شرورها وأضرارها وصفات الشر فيها وتصبح عابدة تقية مؤمنة تقية يضرب بها المثل فى الصلاح والتقوى مثالية يُحتذى بها ويُقتدى كلاً وألف كلا : أخى : إن من عرف نفسه فقد عرف ربه . ومن عرف ربه فقد عرف نفسه فهنا نحن نسمع ونقول ولا يزال الجهل والانغماس فيه شأننا فرحماك ربى وعفوك .

أخى :

المؤمن الحق الصادق بالله يدعو لأخيه المؤمن ، ويتمنى له الخير لحساب المدعو له لا لحساب نفسه يدعو له ويتمنى ما يحبه لنفسه . فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . يدعو له باعتباره هو حيث المؤمنون كُـلُّ كما قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحيمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . أو كما قال .

* * * *

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ

أُخِي :

قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ انظر إلى معاني الآية وتدبرها بكل ما أوتيت من فهم وقوة مستعيناً بالله في فهمها وإدراكها وهو ولي التوفيق وأقول : إن الإرادة هنا هي النية . فإذا كان مراد المؤمن الآخرة فإنه لا ينفك عن العمل من أجلها ولا يتخلف عن الركب متى ما كانت النية حازمة جازمة لأن الله سبحانه وتعالى بمقتضى نية العبد وإرادته يضاعف له السعى ويزيد له العمل حيث الحرث معناه العمل . فإن أعمال الآخرة لا نهاية لها فمن عمل إلى عمل ، ومن هداية إلى هداية . ولا نهاية للهداية . وقد علمت أخى أن المؤمن إذا خلصت نيته وصفت سريره كشف الله بصيرته فيرى ما لا يرى الناس ويشعر بما لا يشعرون . وعليه نجده في حالة تعبئة عامة في كل لحظة من لحظات حياته لأن الاتجاه السليم إلى الله سبحانه وتعالى تتولد منه الحرارة الإيمانية التي لا تَدْعُ الْمُتَّجِعَ إِلَى اللَّهِ يَسْتَقِرَّ عَلَى حَالٍ . فمن عمل إلى عمل . ومن سعى إلى سعى ، ومن قلق إلى قلق ، ومن كشف إلى كشف ومن إدراك إلى إدراك إلى ما لا نهاية . ومن ذاق عرف . بهذه الآية وغيرها من آيات الكتاب نعلم ونفهم وندرك أن الدليل على صدق الطلب للآخرة هو شدة الإقبال على الله بالطاعات والعبادات ، والسعى بشتى الأنواع من الصالحات والمأثورات بحيث يكون الهم موقوفاً على الآخرة ، والرغبة متجهة إليها كلا وجزءاً . وفوق كل ذى علم عليم فإن قوله سبحانه ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ يفيد أن هذه الزيادة خاصة بالأعمال التي يستدعيها الإيمان بالآخرة .

ولما كانت هذه الزيادة من الله فإنه لا آخر لها ولا نهاية . ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ولربما تكون هذه الزيادة هي توفيق الله لعبده المريد « إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى » .

وللعلم أقول : إن أعمال الآخرة لا حصر لها لأنها متعلقة بالله . وكل ما يتعلق بالله فهو من أعمال القلب . والقلب غيب ، والرّب غيب . وعليه أرجو أن نفهم جميعاً أن هذه الزيادة المشار إليها لها صلة بالإرادة التي مصدرها القلب . فهي زيادة خاصة بشعور القلب وإحساسه أكثر منه بأعمال الجوارح والأعضاء . انظروا إلى قلوبكم ومدى اتجاهها إلى الله وطريقتها في كسب مرضاة الله وما تنطوي عليه من الصدق والإخلاص ، المودة ، المحبة . فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء . واعلموا إخواني أن إخلاص ساعة ربّما يتضمن نجاة الأبد . واعلموا أن النية الصادقة هي التي تجلب المزيد من الله . والنية الصادقة معناها تجريد القلب من الحظوظ والشهوات بحيث لا يكون مقصوداً في الوجود إلا الله . ولا مطلوباً إلا هو . ولا مراداً إلا هو . ولا غاية إلا هو ؛ وذلك يتطلب جهاداً عنيفاً ونضالاً مريئاً فليس من السهل طبع النفس على هذا اللون من الشعور والإحساس ، ولكنها تتطبع بالزيادة التي تكون من الله . فاحرصوا على تصفية القلوب وتنقية النفس يتولّكم الله ويزدكم من الحرث . واعلموا أن الزيادة تتولد منها المحبة والمودة . فبعد أن كانت في أول الأمر صورة للأعمال تتغير هذه الصورة من شكل إلى شكل ومن وضع إلى وضع . ومن معنى إلى معنى حيث الأعمال واحدة . ولكن الذي يقبل الزيادة والنقصان هو القلب . فالصلاة مثلاً هي شكلاً وموضوعاً والصلوات الأخرى كذلك فتدبروا . وأضرب المثل للتأكد من هذا فأقول يذهب واحد من الناس إلى عيادة المريض . ويذهب آخرون معه . فالعيادة من حيث هي واحدة ولكنها تتفاوت قدراً واعتباراً من حيث المعنى القلبي والإحساس النفسي . فهذا قصده من العيادة والزيارة جبر الخاطر وردّ جميل سابق . وذاك قصده مجاملة سطحية يريد بها رفع اللوم والعتاب عنه . وثالث يقصد الاطمئنان على صحة المريض ، وسلامته . ورابع يقصد مرضاة الله عملاً بإيمانه واقتداء بسنة رسول الله ﷺ . وخامس يدفعه إلى هذا حب الاستطلاع العام على الأحوال . وسادس يقصد رفع الشاغل عن نفسه لما بينه وبين المريض من صلة وقربة . وسابع يشعر بذات المريض في نفسه . فالعيادة له كالدواء يتعاطاه لشفاء مرضه وعقله .

مرض الحبيب فعدته فمرضت من عطفي عليه
شفي الحبيب وعادني فشفيت من نظري إليه

هكذا قال إمامنا الشافعي رضي الله عنه . فانظر أخى إلى تعدد ألوان القلب وتقلبات أحواله . وهكذا شأن العبد مع ربه في اتجاهه القلبي إليه بأعمال الآخرة .

أخى : قال تعالى : في آية أخرى

﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾

فاعلم أخى أن الإنسان إذا حصر إرادته ، وبنى نيته على الظفر بالدنيا فإن الله تبارك وتعالى يزيد له في أسبابها ودواعيها وأعمالها ومراقبها بحيث لا يجد فراغاً لسواها . فهو أبداً مشغول بها ليله ونهاره . همه واهتمامه . ولذا لا يفرغ طالب الدنيا من الدنيا ولو بلغ ما بلغ منها وجمع ما جمع منها ؛ لأن الله تبارك وتعالى بمقتضى نيته وإرادته ، وما ينطوى عليه العبد من الرغبة في الدنيا يزيد له في حرثها . والزيادة من الله لا حصر لها . ومن كان هذا شأنه فإنه فارغ من نصيب الآخرة ، فلا يجد ما يأوى إليه يوم يخرج من دنياه . لماذا ؟ لأنه بمقتضى مشغوليته بالدنيا لم يعمل شيئاً للآخرة ؛ كأنه غير مؤمن بها ولا مصدق لها ، وربما كان يأتي بعض الأعمال المتعلقة بالآخرة ويدع الكثير ، ولكن لما كانت إرادة القلب قاصرة على الدنيا ، فلا وزن لعمله ، ولا قيمة لما كان منه حيث العبرة بالمعاني لا المباني ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ وقد علمت أن الرغبة للآخرة تفسد الرغبة للدنيا أو تعطلها بعض الشيء حيث لا بد من رجحان إحدى الكفتين وتغلب إحدى الرغبتين . فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

أخى :

إن الإنسان يكاد يعمل أعمال الآخرة ، ولكنه يريد بها دنياه مثل المرائى ، ومثل الذى يقصد بعمله كسب قلوب الناس وأن يكون له جاه

عندهم بدينه وإيمانه . ومثل الذى يعمل لإسعاد حياته الدنيوية من اكتساب وإنجاب ونجاح وفلاح وحفظ ورعاية ، وما إلى ذلك من المتشابهات . ومثل الذى يعبد الله ويتهافت عليه ليكون من أصحاب الخوارق والكرامات ، وما إلى ذلك من شتى الأعمال وأنواع الضلالة والبطالة والفساد . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ولقد صدق الله العظيم ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنِ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ .. ﴾ الآية .

* * * *

: